

حقيقة الاستشراق الفرنسي: العنف السياسي من خلال المدرسة الاستشراقية الفرنسية
**Unveiling French Orientalism: Political Violence through the Lens of the French
 Orientalist School**

سرور بنجدو¹،

¹ المعهد العالي للحضارة الإسلامية- جامعة الزيتونة (تونس) sourourbenjeddou@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/07/31

تاريخ القبول: 2025/05/22

تاريخ الاستلام: 2025/06/23

ملخص:

تتناول الدراسة تأثير الاستشراق السياسي، خاصة الفرنسي، في تشكيل صورة نمطية سلبية عن العالم العربي والإسلامي. أكد النص أن هذا الخطاب صوّر الشرق كجامد وعنيف مقابل الغرب المتقدم، لخدمة أهداف سياسية واستعمارية، مما عزز التبعية الثقافية وشوّه هوية العرب والمسلمين. كما ساهم في تبرير العنف السياسي عبر رؤى استشراقية تتجاهل أسباب القهر الحقيقية. ركزت الدراسة على المدرسة الفرنسية، مبرزة إعادة بعض مستشرقها تصورات نمطية مع إغفال السياقات التاريخية والاجتماعية للصراعات.

كلمات مفتاحية: الاستشراق، الاستشراق الفرنسي، العنف السياسي، الخطاب الاستشراقي، الهوية العربية، الصراع الحضاري، التبعية الثقافية.

Abstract:

This study examines how French political Orientalism shaped negative stereotypes of the Arab-Islamic world, portraying it as violent and backward while presenting the West as rational and superior. These depictions supported colonial agendas, justifying domination under the guise of modernization. It reveals how French Orientalists often linked Islam to violence, ignoring the true political and social causes of conflicts. The research calls for dismantling Orientalist narratives and advocates for justice, good governance, and mutual respect to encourage fairer East-West relations.

Keywords: Orientalism-French Orientalism- Political violence-Orientalist Discourse-Arab Identity-Civilizational conflict-Cultural Dependency.

1. مقدمة:

لا شك في أن الإسلام قد واجه، وما زال يواجه، تحديات جمة عبر مسيرته الطويلة، منذ أن انبجح فجره من غار حراء بمكة المكرمة وإلى يومنا هذا. المسلمين تعرضوا لأشكال من العذاب والاضطهاد من قبل كفار مكة ومشركيها. وفي المدينة تعرضوا لحملات عسكرية من قبل الكفار والمؤامرات من قبل اليهود. وكذلك واجه الإسلام حملات التتار والحملات الصليبية المتكررة، وحملات الغزاة المستعمرين الذين سموا أنفسهم بالمستعمرين، وتعرض الإسلام كذلك للغزو الفكري والثقافي في القرون الأخيرة والذي استمر إلى الوقت الراهن. وقد تنوع الغزو الفكري والثقافي إلى أنواع مختلفة حسب الزمان والمكان. فمن أهم وأخطر أشكال هذا الغزو "حركة الاستشراق"، والتي أخذت شكل حملات فكرية وعلمية كما يدعون تتمثل أساسا في آراء ومواقف مجموعة من العلماء والمثقفين والمفكرين وقد مرت هذه الحركة ومازالت تمول الحكومات الغربية وغيرها ممن يحاربون الإسلام. فالاستشراق أداة طبيعة للمنصرين وغيرهم ممن يعادون الإسلام ويعملون ليلا نهارا في إزالته ومحوه من سطح الأرض.

وليس القصد من هذا المدخل التاريخي حول الاستشراق وتطوره أن يكون عرضا شاملا يقف عند كل التفاصيل ويدقق في الجزئيات، وإنما القصد منه هو فقط إلقاء نظرة عامة تبرز لنا بعض المعالم الرئيسية والخطوط العريضة في هذا الصدد، نتعرف من خلالها على أهم المؤثرات التي كان لها دورها الفعال في تطور الحركة الاستشراقية، وما صاحب ذلك كله من تطوّر في النظرة الغربية للإسلام والحضارة الإسلامية بوجه عام. وتوضيح هذه الجوانب يعدّ بمثابة تمهيد ضروري لفهم الاتجاهات المختلفة للمواقف الاستشراقية إزاء الإسلام والمسلمين بما فيها "العنف السياسي في الاستشراق الفرنسي الحديث"

1- مشكلة الدراسة

تتمثل العلاقة بين الاستشراق الحديث والاستشراق التقليدي في كون الأول امتداد وتطوّرًا للثاني، إذ ورث عنه النظرة النمطية تجاه الشرق، لكن في سياق عالمي جديد تطبعه التوتّرات الجيوسياسية وظاهرة العنف السياسي. فقد سلّم الاستشراق الحديث، لا سيما في أعقاب أحداث كبرى ك 11 سبتمبر في إعادة إنتاج صورة الشرق كفضاء للفوضى والعنف والتّطرف، ممّا أدى إلى تسليط الضوء بشكل مبالغ فيه على العنف السياسي في المنطقة. وبدلا من البحث في جذوره السياسية والاجتماعية، غالبا ما يتمّ تأطيره ضمن سرديات ثقافية أو دينية تعيد إنتاج ثنائية "الشرق العنيف" مقابل "الغرب المحتضر". وقد فجّرت هذه النظرة أحكاما مسبقة غدّت السياسات التّدخلية، وأسهمت في تغذية الصراعات بدل حلّها،

كما عزّزت من مظاهر الإسلاموفوبيا والتمييز. وبناء عليه جاءت إشكالية الدراسة على النحو التالي: إلى أيّ مدى أسهم الاستشراق السياسي، خاصة في صيغته الفرنسية، في إنتاج صورة نمطيّة عن العالم العربي الإسلامي ساهمت في تغذية العنف السياسي؟ وما المآلات الحضاريّة لهذا التّصور الاستشراقي؟ انطلاقاً من هذه الإشكاليّة والأسئلة المتفرّعة عنها، سنعتمد على منهج استقرائي تحليلي للنظر في الاستشراق الحديث والعنف السياسي لتوضيح الصورة الراسخة في أذهان الشعوب الغربيّة، ومع مُصاحبة المنهج التّقدي لظاهرة العنف السياسي ومحاولة إيجاد الحلول، حيث ارتأينا العمل على التّخطيط التالي:

المبحث الأول: نشأة العنف السياسي من خلال آليات المدرسة الاستشراقية الفرنسية

المبحث الثاني: المآلات الحضاريّة للاستشراق السياسي.

2- الهدف من الدراسة

يعدّ الاستشراق أداة خطيرة أسهمت في تشويه صورة العالم العربي الإسلامي وتبرير الهيمنة الغربيّة، ممّا غدّى العنف السياسي والصّراع بين الشرق والغرب. ورغم تراجع تأثيره، بسبب النقد المتزايد وظهور دراسات ما بعد الاستعمار، إلّا أنّ أثره ما زال قائماً. وتُعدّ المدرسة الفرنسيّة مثلاً على استشراق منحاز، حيث ركّزت على الجانب الثّقافي والديني للإسلام، متجاهلة الأسباب السياسيّة للعنف. ولتجاوز هذا الصّراع، يجب تفكيك الخطابات الاستشراقية، وتعزيز العدالة، واحترام الخصوصيّات الثّقافية، وتشجيع حوار متوازن بين الحضارات.

2. المبحث الأول: نشأة العنف السياسي من خلال آليات المدرسة الفرنسيّة

1.2 المطلب الأول: الخلفيّات التاريخيّة والسياسيّة لنشأة الاستشراق الفرنسي

1.3 الحروب الصليبيّة:

حيث كانت تشكل الدّورة في مسعى الغرب للحدّ من عالميّة الإسلام وانتشاره، وفي إبّان الحملة الصليبيّة الأولى على بلاد الشام خطب البابا (أريان) في مدينة كليرمونت بفرنسا محرّضاً على الالتحاق بالحملة المسعورة ضدّ البلاد الإسلاميّة. وهكذا توحدت جميع القوى الأوروبيّة المتصارعة من أجل شنّ الحروب تدميرية بشعة ضد العالم الإسلامي.

الحركة الاستعماريّة:

لم يكتف الغرب تاريخياً بشنّ حروب شرسة ضدّ العالم الإسلامي وإنّما تبع ذلك بحملات استعماريّة مدمّرة على بلدانه. وبشكل عام فملف الاستعمار في العالم الإسلامي وعمليات الإرهاب والإبادة

والقتل أو الوحشية والتدمير، لا زالت ماثلة أمام أعين الشعوب الإسلامية.(محمود محمد، 1998، ص 14-15 بتصرف)

1. القضية الفلسطينية:

إذ تعتبر من الأسباب الرئيسية لحالات العداء والحذر والمواجهة في مسيرة العلاقة بين الطرفين. فالغرب، وبمؤامرة مدروسة حاول أن يجمع الشتات اليهودي على أرض فلسطين. وبهذا شكّل لنفسه قاعدة غربية متقدمة في العالم الإسلامي تمنع وحدة الأمة، وتقضي على كل وتائر التّقدم والتّطور فيها، وتؤسس نسقا متصلا لتبديد ثروات الأمة، في عملية شراء الأسلحة وتخزينها، لتحقيق التّوازن الإستراتيجي الموهوم. ومن أجل تحقيق هذه المؤامرة الدنيئة ذهب الشعب الفلسطيني ضحية العقلية الغربية الاستعمارية التي لا تفكر إلا في مصالحها وأطماعها. (محمود محمد، 1998، ص 16)

ولكل الأمور أصبحت مسيرة العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي مليئة بنقاط التوتر والحذر وبؤر الانفجار والمواجهة. وبفعل حالة الحذر والتّرقب التي كانت تسود العلاقة التاريخية بين الطرفين أصبحت القضية معركة تاريخية مستمرة. وعلى طول هذه المسيرة يهزمن الغرب تارة وهزمهم تارة أخرى، مرة ندق أبواب فيينا ومرة يدق أبواب القدس، مرة يحاصر بواتيه في جنوب فرنسا ومرة يحاصر عكا في فلسطين، فلقد مكنت هذه العوامل كلّها متجمّعة أو متفرّقة، حالة حرب كانت أو سلم من امتزاج ثقافي بين فرنسا والشرق الإسلامي، ومن تزاوج حضاري وتبادل التأثير والتأثير.

2.2 المطلب الثاني: ارتباط الخطاب الاستشراقي بالعنف السياسي

لقد ظلّت فكرة السّيطرة على المشرق الإسلامي في مخيلة الفرنسيين حتى بعد مضي ما يزيد عن خمسة قرون على الحروب الصليبية، إذ كررت فرنسا محاولة الاحتلال العسكري لمصر، وهي الحملة العسكريّة التي قام بها الجنرال "نابليون بونابرت" على مصر والشام بهدف إقامة قاعدة في مصر تكون نواة لإمبراطورية فرنسية في الشّرق من ناحية، وقطع الطريق بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند من ناحية أخرى، وأيضا لاستغلال مواردها في غزواته في أوروبا.

استمرت الحملة ثلاث سنوات وفشلت، وأسفرت عن عودة القوات الفرنسية إلى بلادها، وقد صاحب هذه الحملة اهتمام علمي، إذ كان مصاحبا للحملة المئات من العلماء والخبراء الفرنسيين في كافة الميادين والتخصّصات رصدوا واقع مصر في المجالات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والفكريّة والدينيّة والسياسية والعسكرية، وخرجوا بموسوعة علمية ضخمة عن مصر وإمكاناتها وأحواله في ذلك الوقت (الحسين سلطان عمر، 1436هـ، ص 61)

المبحث الثاني: المآلات الحضارية للاستشراق السياسي

أثارت الظاهرة الاستشراق ومازالت تثير جدلا حاميًا بين مؤيديها ومعارضيه، بل إننا نستطيع الجزم بأنها أكثر المسائل إثارة للجدل والنقاش، وسوف تستمر هكذا ولأحقاب لاحقة، حتى يتم فهم هذه

الظاهرة فهما علميا، بعيدا عن التعصّب، نعم لقد تطرق الاستشراق إلى جميع مناحي الحياة الشرقية والإسلامية، ولم يدع مجالا إلا وأدلى فيه بدلوه، ولم يترك شاردة أو واردة إلا وقال فيها كلمته.

وفي هذه المرحلة تمخّضت عن أكبر صدمة عرفها تاريخ الشعوب والحضارات، وهي التّمدد الغربي باتجاه شعوب العالم مستغلاً وناهما ومخضعا... وهي ما عرفت بمرحلة الاستعمار التي لا تزال تحت مفاعيلها السّلبية. ولايجوز أن ندخل في الحديث عن مآلات الاستشراق السياسي، إلا وكان من واجبا وصف مؤامرات الغرب على الشرق وتمدده عليه تمدد تآمري، فذا فعل تلقائي بالنسبة للحضارة الأقوى، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا، قائلين إنه ينتظم تحت ما يسمى ملء الفراغ الحضاري...

المطلب الأول: أثر الاستشراق في تشكيل الوعي الغربي تجاه الشرق

يهدف هذا المطلب إلى بيان أهمية البعد والهدف السياسي للاستشراق، حيث يعدّ هذا الهدف من أهم الأهداف التي مثّلت الولادة الحقيقية للاستشراق. فالغرب وعلى الرغم من أنه حاول ويحاول جاهدا إقناع العرب والمسلمين بجدوى هذه الدراسات وبأنها في مصلحته من جانب، وبعدم وجود أي بعد أو غاية سياسية من جانب آخر إلا أن الواقع يفرض عكس ذلك، فالهدف السياسي في مقدمة الأهداف الاستشراق وهذا يظهر من خلال النتائج المترتبة على الاستشراق ومن أبرزها الحروب التي تعرّضت لها الدّولة الإسلامية من جهة والضعف السياسي الذي عانت منه هذه الدولة، فالاستشراق استخدم الدّين من جهة والتاريخ من جهة أخرى ليبين بأنّه يهدف إلى خدمة المسلمين من خلال البحث في كتبهم وإظهار منافع هذه الكتب.

هل كان الاستشراق سيئا إلى هذا الحد؟ وهل يستحق هذا العداء؟

ومما لا شك فيه ان الفكر السياسي هو أحد الأسباب الرئيسية لنشوء فكرة الاستشراق لدى الغرب، فالسياسة بحد ذاتها عنصر أساسي في هذه القصيدة بل لا تكاد تذكر قضية الاستشراق من دون ذكر الأغراض والأهداف السياسية لنشوء هذه الفكرة. وهذه القضية تظهر واضحة جليّة من خلال الاطلاع على الفترة التي ولد فيها الاستشراق، حيث ذكر الكتّاب بأن القوّة السّياسية والعسكريّة التي وصل إليها المسلمون هي الأصل في نشوء الاستشراق حيث كان المسلمون في سدة القيادة العالمية، وكانوا يسيطرون على مساحات واسعة، وكان جانب التوسّع ممكنا بالنسبة لهم وصولا إلى أوروبا، مما ولّد لدى الغرب تجاه المسلمين فكرا سياسياً عدائيا، ممّا أدى بالتّالي إلى ظهور موقف عدائي واضح تجاه الإسلام كمنهج سياسي وليس كمنهج ديني. وسنحاول في الصفحات القادمة تسليط الأضواء على البعد السّياسي للاستشراق. ويعتبر الاستشراق المرحلة الأولى التي تسبق الاستعمار والعنف بكل أنواعه ويسعى جاهدا لإضعاف الأمم الأخرى قبل احتلال البلاد. كما تعتبر أفواج المستشرقين طلائع الاستكشاف لتذليل الصعاب أمام جيش الاحتلال، ولهذا تعددت وظائف المستشرقين لخدمة الاستعمار.

ولقد كان المستشرقون جواسيس وعساكر المستعمرين تعلّموا لغات الشرق، واطلعوا على ثقافته ونفسيته، وآدابه، ثم قدموها نسخة مشوّهة لشعوبهم، واستمالوها لتكون مع قادتها وعساكرها

صفاً واحداً، لقد ادّعوا كذباً ومهتاناً أن الاستعمار إنما هو المدنية والحضارة في وجه الهمجية والضلال، ستراً لسوءاتهم وتبريراً لجرائمهم (أحمد شايب الدو، 2009-2010، ص27) "إنه ولا ريب أن فريقاً من الأوروبيين لا ينظر بعين الجد إلى إشهار حرب دينية على المسلمين، ولكنه يرغب في إتحافنا بمدينته، بصفة كونه وصياً علينا أو منتدباً لنا، وفي الوقت نفسه يبتز أموالنا بلباقة"، (الفيومي محمد إبراهيم، 1973، ص77) لا شك أن هذا الفريق هو فريق المستشرقين المتخندقين خلف الاستعمار، هذا الفريق لا يؤمن بدين، ولا يؤمن بصراع تغذية العقيدة، إنما يؤمن بأموال الشرق وثرواته بحجة مدينته، وتخلف هذا الشرق، وحتى أولئك الذين يشبهون بحرب دينية على المسلمين. (أحمد شايب الدو، 2009-2010، ص27-28)

إن القول بالهدف والبعد السياسي في المجال الإستشراقي يمثل أحد الأسباب لفضح السياسة الغربية تجاه الشرق، تلك السياسة التي أصبحت فيما بعد عطاء لأهداف أخرى كالبعد الحضاري والاقتصادي ونحوه، والذي أراه أن الغرب كان ذكياً حينما نوع دراساته الاستشراق من خلال الدين والسياسة والحضارة والاقتصاد، فالمنفعة السياسية هي الأساس لنشوء الاستعمار الاستشراقي، إذا يمكن أن نقول إن للفكر الاستشراقي آثار سياسية نتاج عن العنف السياسي وهذا ما يؤيد البعد السياسي له والغرض الأساس لولادة الاستشراق ونستطيع إجمال أهم هذه الآثار بما يأتي:

أولاً: فتح بوابه الاستعمار في العالم العربي، وذلك من خلال دراسة المجتمعات العربية سياسية معمقة تمهيداً لاحتلالها فكرياً وعقائدياً ومن ثم عسكرياً، ففكرة الاحتلال العسكري للبلدان العربية والإسلامية هو بحد ذاته نتاج لمنهج الاستشراق السياسي وهدف من أهدافه، وبالتالي قدم الاستشراق خدمة جليلة للغرب من حيث أنه مكّن وساعد في احتلال الدول الشرقية، ويسر في الوقت ذاته طرق التعامل مع البلدان المستعمرة (خليفة حسن أحمد محمد، 1997، ص32). وهذا ما حصل في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، حيث امتد البعد السياسي إلى أبعد مما كان يتصور حيث "اتجه إلى أحداث التغيير في التفكير السياسي عند المسلمين وإجبارهم على تبني النظم الإسلامية، وهذا بطبيعة الحال دور فكري قام به الاستشراق السياسي الذي نقد النظم الإسلامية ووصفها بالجمود والتخلف وعدم الصلاحية، وشرح النظم الغربية وبين محاسنها وزينها وحاول فرضها بالقوة في الكثير من الأحوال، وأعد من بين المسلمين علماء تابعين للاستشراق يروجون للنظريات السياسية الغربية وينشرونها بين المسلمين." (خليفة حسن أحمد محمد، 1997، ص37-38). و من هنا ندرك بداية الخطر الغربي من خلال الفكر الاستشراقي، بل ويتضح لنا بما لا يقبل الشك الأهداف السياسية المغلفة بغلفة متنوعة، وهي التي جعلت البعض من المسلمين يتبنوها ويدافع عنها، وهذا هو الطعم الذي استخدمه الغرب لاصطياد الشرق من خلال السيطرة على عقول أفرادهم وخداعهم وعدم لفت نظرهم إلى الخطورة الملحقة بهم من خلال الأهداف بعيدة المدى التي سعى الغرب إلى تحقيقها، والتي لا نشك لحظة أن ما

يعانيه العرب والمسلمون اليوم من انقسامات هي نتاج للفكر السياسي الغربي الذي كان وما زال يطمح لتحقيق هذه الغاية.

ثانياً: سعى الاستشراق إلى إضعاف العالم الإسلامي من خلال تفكيك وحدته وزرع الانقسامات بين شعوبه، وذلك عبر الترويج للفكر القومي وتعزيز النزعات الطائفية والمناطقية. واستهدف بذلك الروح الإسلامية التي تقوم على التضامن والوحدة، مستعيناً بوسائل سياسية مثل اتفاقية سايكس بيكو عام 1916 التي قسّمت البلاد الإسلامية إلى كيانات منفصلة. كما عمل على فصل الشعوب عن تاريخها المشترك وهويتها الإسلامية الجامعة، بهدف إبعادها عن أي مشروع سياسي أو حضاري يوحدتها ويعيد لها قوتها.

و"لم يتوقف دور الاستشراق في بعث كل هذه الحركات والنظريات القومية بل أثار النزعة القومية داخل كل بلد إسلامي على حدة وذلك بإثارة العصبية القبلية والروابط العرقية". (خليفة حسن أحمد محمد، 1997، ص40)

و لعل الفترة التي سبقت سقوط الدولة العثمانية كانت فترة نشطة للاستشراق السياسي، فعلى الرغم من ضعف الدولة الإسلامية آنذاك، إلا أن هذا لم يمنع من تدخل الاستشراق وإسقاط ما بقي من نفوذ الدولة الإسلامية على ضعفها، وهنا يمكن القول أن محاربة وإسقاط الدولة العثمانية هو ثمرة السعي الجاد لتمزيق الدولة الإسلامية ذات النفوذ القوي والتي سبق لها وإن فتحت آفاق الدنيا وامتمد نفوذها في أوروبا، ممّا يؤكد الغاية والغرض الذي نشأ لأجله الاستشراق وهو استهداف القوة السياسية العسكرية الإسلامية وهذا لا يمكن أن يكون إلا بسياسة مضادة واحتلال بغرض (محمد الجيري عبد المتعال، 1995، ص128)، ولأجل ذلك كان الطابع الديني هو البارز في دراسات المستشرقين لا سيما الدراسات السياسية والإستراتيجية والعسكرية.

ثالثاً: الدعوة إلى تغيير النظام السياسي الإسلامي أو نقد النظام الإسلامي. وهذا يظهر بما لا يقبل الشك الدور السياسي في الفنّ الإستشراقي، فالنظام السياسي هو النظام المستهدف من خلال التركيز عليه في دعوات وآراء وأقوال المستشرقين، الذين انفكوا يظهرون سلبيات هذا النظام، من خلال عرض الأدلة الدينية وتأويلها بما يؤيد وجهة نظرهم مما يؤكد صراحة على أن الدين ليس إلا وسيلة لتحقيق غاية مهمة نشأ وولد الاستشراق لأجلها. فقد كان هم الغرب من خلال الفكر الإستشراقي النفوذ إلى دواخل المجتمعات الإسلامية وإضعافها سياسياً وعسكرياً، وأول ما يحقق أغراضهم هو ضرب الوحدة الفكرية لتلك الشعوب وتهيئتها لقبول الوصاية والاحتلال الغربي. (مخلف خذيري الزيدي إسماعيل و العذارى ثائر عبد المجيد، 2015، ص733)

فمن خلال بحثنا المعقّد وتحريّ دقيق لمآلات الاستشراق تطالعنا صور مشوهة قد نقلها المستشرقون عن الإسلام وتلقّتها عن طريقهم، ولعلّ من أخطر هذه الحروب الحديثة بين الإسلام والمستشرقين هي ممارسة العنف السياسي، وبدأت من خلال التشكيك بالإسلام وعقائده وعباداته

وأخلاقه وعالميته وتبنيه لأفكار القمع وتغيب الحقوق والسلب والاستحواذ والتهب لأموال الناس من خلال استعراضهم لمجمل الفتوحات الإسلامية إبان رقي وتعاضم الشأن الإسلامي وشيوعه وإن مجرد التشكيك بهذه الثوابت قد يغري بعض المسلمين ويوقعهم في الشرك الشك وبذلك يحققون مكسبا كبيرا بكسبهم لعناصر محسوبة على الإسلام. (مخلف خذيري الزيدي إسماعيل و العذارى نادر عبد المجيد، 2015، ص733) وثانيا متابعة الأعراف والتقاليد الإسلامية المحددة لتصرفات المسلم ووصمها بالتخلف وتشجيع كل ما هو خراج عن هذه التقاليد من خلال إيجاد بدائل تعد في نظر المعجبين بها هي أكثر انفتاحا وتخليصا لهم من ما يعوده قيادا وفق الشريعة والعرف الإسلامي فيدب الفساد والخراب الفكري والأخلاقي لأجيال يعول عليها أصحاب المؤسسات العاملة على تخريب الإسلام في أنهم سيتمكنون من تحطيم بنيته التحتية بتحطيم هذه الأجيال. (نفس المرجع السابق، ص756)، ومن هنا الأوروبي، ومن ثم القضاء على المخاوف الغربية من الفكر السياسي للدولة الإسلامية الذي كان من الأهم أهدافه الفتوحات التي وصلت ما وصلت إليه، والتي أيقظت المخاوف الغربي.

ولقد برز التطرف الديني السياسي من أجواء القمع التي هيمنت على حياة الناس في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ومنعت الحوار وحرية الصحافة والأحزاب السياسية، وضمن هذه الظروف برزت جماعات إسلامية تبنت العنف ومقارعة الدولة وأجهزتها السياسية والأمنية تحت شعار "ممارسة الجهاد". ولعل أبرز القوى الإسلامية العسكرية التي تشكلت نتيجة الاضطهاد السياسي والديني في مرحلة "الانفتاح" التي قادها "أنور السادات"، الجماعات الإسلامية التي قادت صراعا مسلحا ضد نظام الأخير، وتمكنت من اغتياله في صيف 1981. (الشرفا وليد، ادوارد سعيد، 2016، ص29)

أجواء الاضطهاد السياسي والديني، وفقدان حرية التعبير والحوار والنقد والتنظيم في دول العالم الإسلامي، أدت في العقود الأخيرة إلى إيجاد أجواء التطرف، وتولد قناعات عند البعض أن القوة هي الطريق الأمثل للتعبير تحت ظل الدولة الحديثة (الاستشراق) وأن العنف والإرهاب هو الطريق الوحيد للتغيير. وبرزت ثقافة جديدة توظف النصوص الإسلامية المرجعية، من قرآن وسنة، لتبرير راية الإسلام وتتسم ثقافة التطرف الديني في العالم الإسلامي بجملة من السمات، يمكن إجمالها كالآتي:

أولاً: تقسيم العالم إلى معسكرين: معسكر المؤمنين ومعسكر الكفار وأعوانهم، وعلى الرغم من أن هذا التقسيم يستعيد التقسيمات الفقهية التاريخية التي تميز بين الإسلام ودار حرب، لكن المتابع لتصريحات الناطقين بلسان الجماعات الإسلامية المتطرفة يلحظ غياب القواعد الشرعية التي فصلها الفقهاء التاريخيون، من استهداف المقاتلين وعدم الاعتداء على غير المقاتلين، وتجنب إلحاق الأذى بالنساء والأطفال (نفس المرجع السابق، ص28)

ثانياً: استباحة دماء وأموال الموسومين بالكفر، واستخدام وصف الكافر استخداما واسعا ليشمل غير المسلم، دون تفريق بين صديق وعدو، أو مسالم أو محارب، ويشمل كل من دعى إلى فكرة أو تصور يتعارض مع معتقدات الجماعات المتطرفة.

ثالثاً: رفض التعددية الاجتهادية وسيطرة الحرفية في قراءة النصوص وتفسيرها، والاعتساف في الاستدلال، وغياب الفقه العميق القادر على التمييز بين العام والخاص، والكلي والجزئي، والعزيمة والرخصة والمقاصد الشرعية وتطبيقاتها التاريخية. (نفس المرجع السابق، ص129). إن التطرف الديني الذي علا صوته مؤخراً عبر لجوئه إلى العنف السياسي كأداة للتغيير يمثل خروجاً على الاتجاه الإسلامي العام المتمسك بسماحة الإسلام وانفتاحه على المجتمعات الإنسانية. وحرصه على رسالته الإنسانية التي وصفت المولى جلّ وعلا رسولها بأنها رحمة للعالمين، والتي أظهر أتباعها عبر التاريخ أنهم رسل عدل وسلام وتسامح، وأنهم صناع حضارة نغمت بها شعوب العالم على اختلاف ألوانها ودياناتها وقومياتها، ومن هنا تتأكد أهمية الحفاظ على روح الإسلام ومغبة الانكباب في نزعات التطرف والتأثر والانتقام. (الشرفا وليد، ص، 30)

وهذا ما أدى إلى خلق بؤرة تتجمع فيها أسباب البؤس الفكري والدمار الاجتماعي، وهي ما نعيشه في اللحظة التاريخية الراهنة. وقد ساهم أركون بمعية مثقفين عرب آخرين من أمثال المؤرخ التونسي هشام جعيط، في هذا الدمار بحيث أن كل الذين نقدوا الاستشراق الأكاديمي والفيولوجيا (لا الإسلاميين لان لا قيمة لأعمالهم)، وكل من أدلى بدلوه بحسب الطاقة والوسع في هذه المعركة الأبطولية، ذكى الغلو والإرهاب، المسألة ليست مدبرة من مراكز قرار خارجية ولا علاقة لها بالمخابرات الغربية وبقصصية للإطاحة بالنظم العربية وإعاقة تقدمها، وإنشاء الصراع العربي الإسرائيلي، المسألة تكمن حسب أركون في زيادة عدد السكان في العالم العربي، وعدم قدرة الدولة على توفير احتياجاتهم وبالتالي من المنطقي أن تنتشر الجماعات الدينية بين الشباب أساس لأنها تعبر عن مطالب اجتماعية بلغة سياسية معجمها دين ويصطبغ بصبغة دينية حتى يعبر عن وقائع وحاجات في حقيقة أمرها، إذا حددناها نتيبن أنها كلها أمور عادية تتعلق بسد أرقام الناس وحاجتهم اليومية. (المزوي محمد، 2016، ص198)

هكذا يسمى مجموعات إرهابية تخريبية مشهورة بعمالها للمخابرات الغربية بأنها مجرد أحزاب سياسية ذات معجم ديني وأن أعمالها الإرهابية هي أمور طبيعية. لكن الواقع يكذب أركون، فالإسلاميون لهم مشروع واضح وصريح، وقد أعلن عنه منذ ثلاثينيات حسن البنا وقام بتطويره وتطعيمه الحقد سيد قطب، وهو تكفير المجتمع وتدمير الدولة المدنية والقضاء على العلمانية وتطبيق الشريعة وقبر النساء في أكياس وإغلاق المدارس الحكومية وفتح في مكانها معسكرات للتدريب أشبال مرتزقة إرسالهم إلى بلدان العالم تحت طلب الأمريكان والإسرائيليين. فالقضية بالنسبة إليهم هي أبعد من أن تكون محصورة في حاجيات اجتماعية وسد أرقام الناس، وهم لا يعيشون في فاقة، لأنه يمارسون تجارة التهريب، وتدر عليهم أموالاً طائلة. فالقضية المركزية هي بناء دولة إسلامية تحكم بالشريعة، ويربطها بالخلافة الراشدة ثم وضع في خدمة المخطط الإمبريالي الأمريكي لتطويق روسيا والصين، وهو بالضبط ما نراه بتحقيق الآن أمام أعيننا. (المزوي محمد، 2016، ص198)

بالنسبة لأركان الدولة القومية الحديثة كانت كارثة على الدين، لأنها "أممت الإسلام بشكل مبالغ فيه"، هذا على الرغم من أن الدول العربية كلها عندها وزارات أوقاف، ووزارات الشؤون الدينية تسهر على بناء الجوامع، وعلى صرف رواتب الأئمة وفاتورات المياه والتيار الكهربائي والصيانة وكل هذا على كاهل الشعب الكريم المسحوق، والدولة الحديثة، تفعل هذا للإسلام فقط أما المسيحية واليهودية (إن وجدتا) فهي لا تصرف عليهما ولو فلسا واحدا. ومع ذلك فإن أركان يطالب هذه الدول أن ترفع يدها على الإسلام وتترك الدعاة يصلون في ربوعها ويبثون سمومهم في أذهان الشباب، كما حدث للجزائر في التسعينات في القرن الماضي قبل أن تتحقق بالفعل الكارثة. أركون مقتنع من أن الدولة القومية الحديثة "قد ألغت كل إمكانية لتحقيق الاستقلالية الذاتية للحياة الدينية". لا تخفى على أحد الطبيعة التخريبية للمشروع الذي يدعو إليه، وهو فتح الأبواب على مصراعها لكل من هب ودب من الدعاة الوهابيين وتركهم أحرارا يستقطبون الشباب للجهاد ويبثون في أدمغتهم تعاليم الوهابية البغيضة. وهذا فعلا ما حصل قبل العشرية الدموية التي عاشتها الجزائر. وإمعانا في التنكيل فهو يزور التاريخ ويقول "إن الإسلام المستقل ذاتيا لن يتح له أن يتشكل ويستمر على الدوام في مواجهة الأنظمة القسرية". (المزوي محمد، 2016، ص200)

الوصفة التي يقترحها أركون هي خراب الدين والدنيا الذي نعيشه الآن "الدولة تحكم في مجالها والدين يحكم في مجاله، باستقلالية كاملة الواحد عن الآخر". وصفة متفجرة لأن الرجل لا يعلم أن الدين الإسلامي لا يروض وهو غير قابل للترويض أصلا ويجب بالتالي أن تتخذ الدولة إزاءه خطوات حازمة لكي لا ينفلت من سلطتها ويستقل بذاته ثم ينقلب عليها ويخربها. الدين الإسلامي لا ينبغي بحكم أي شيء ولا أن يستقل في أي مجال، يجب التقليل منه إلى الحد الأدنى وإعطاء بطائل عنه، مثل العلم والفن والرياضة. (نفس المرجع السابق، ص200)

لكن السبب الحقيقي وراء هذه المحاباة للإسلاميين يكشف عنه أركون نفسه، لأن الرجل الإسلامي مثلهم مقتنع بأن الدين هو كل شيء في حياة الإنسان ولا يمكن العيش دونه: "الاتجاه الديني-كظاهرة دينية أيضا- يمكننا أن نقول إن له وظائف عديدة فضلا عن الوظيفة السياسية التي ذكرناها. له أيضا الوظيفة الإنسانية يحس بحاجة إلى أن يعبر عن إيمانه بالله وهذا الأمر له أيضا أهمية نفسانية عندما لا يجد الناس ما يسدون به حاجاتهم الأساسية ولا يجدون أمامهم إلا تأويلات للدين" (المزوي محمد، 2016، ص201)، وهذا ما أدى إلى التمدد الاستعماري تمخضت هذه المرحلة عن أكبر صمه عرفها تاريخ الشعوب والحضارات، وهي التمدد الغربي باتجاه شعوب العالم مشتغلا وناهبا ومخضعا.. إلخ، وهي ما عرفت بمرحلة الاستعمار التي لا تزال تحت مفاعيلها السلبية (أحمد حسن إبراهيم، 2004، ص34). لقد كانت تجارب استعمارية كبرى كاستعمار بريطانيا للهند أو استعمارها لجنوب إفريقيا أمثلة واضحة في محاولة طمس حضارات الشعوب واستبدال قيمها، لكن يبدو أن الكثير من القيم الأصيلة تكون عصية على التبدل. ولقد ساهمت فرنسا في تغيير المعالم الثقافية والفكرية لبعض مناطق الوطن العربي كما

جرى في الجزائر والمغرب ويورد د. محمد عابد الجابري حكاية عن القائد الفرنسي للقوات في المغرب أنه طلب المسؤول عن التعليم، وهذا ما عملت عليه فرنسا مما لا تزال آثاره واضحة. (نفس المرجع السابق، نفس الصفحة)

وكأن هناك علاقة بين نقد الاستشراق وصناعة داعش، يعني خلق بؤرة تتجمع فيها أسباب البؤس الفكري والدمار الاجتماعي ويمكن أن نقول أن أسباب العنف السياسي لا تقتصر على الغرب فقط فالشرق أيضا مارس العنف من خلال التطرف الديني وآثار سلبية كبيرة التي تركتها المرحلة الاستعمارية على الشعوب المستعمرة، لا تلمس ما ساهمت به من حوارات بين الحضارات المختلفة في ظروف تتسم بالقهر والغلبة، ولا شك أنه كان من الأفضل لو أن هذه الحوارات قامت في مناخ من الندية، وهي ما نعيشه في اللحظة التاريخية الراهنة التي نسعى إلى إيجاد معالجات لها وهذا ما نتناوله في المطلب الثاني.

المطلب الثاني: الهوية العربية والعنف السياسي: من التمثيل الاستشراقي إلى النتائج

الحضارية

استيقظ العرب والمسلمون، بعد سبات عميق وطويل في القرن الماضي. على احتلال الدول الغربية الاستعمارية لأراضيهم، ونهب ثرواتهم، والتحكم في مصائرهم ومستقبلهم. ومنذ تلك اللحظة التاريخية الحرجة، بدأ الصراع اللا متكافئ، بين طرف يمتلك كل أسباب القوة المادية، من جيوش منظمة، واستراتيجيات واضحة المعالم والأبعاد، إلى اقتصاد ومجتمع حي، يتطلع إلى السيطرة والهيمنة على العالم، تدفعه إلى ذلك أيديولوجية، تبرر له هذا السلوك، وتسوق له الأعمال والممارسات، التي يقوم بها في هذا السبيل، وطرف آخر يعيش الضعف والمرض في كل أجزاء جسمه، فهو مشّت اجتماعيا، ومجزأ جغرافيا وسياسيا، ويعيش الغش في الرؤية الإستراتيجية، كما يتخبط في مناهجه.

لقد تمحورت موضوعات مطلبنا، استرساله واستطراداته كافة حول التأثير الجدلي المتبادل بين الإستشراق ومعارضيه، إنها مسألة معاصرة بامتياز في تجلياتها على صعيد واقعنا اليوم، مع أن لها جذورا تاريخية مغلّة في عمق العلاقة الفجوة بالتوتر بين العالمين الغربي والشرقي، وهذا ما جعل منها قضية سجالية لن تهدأ طالما نعيش مفاعيلها ضمن نطاق التأثير والتأثر بما قاله الأوروبيون عن الشرق، وبما يحاول العرب قوله عن أنفسهم و "عنهم"، لكن النقطة البارزة هنا في هذا السياق، تتمثل بأرجحية قولهم عن الشرق الواضح في ردّ المثقفين العرب، غير المتكافئ بسبب استلابهم إلى منطلقات معرفية-منهجية، لم يحددها الشرق، إنما تحددت بأسبقيتهم عليه، إن لم نقل تفوقهم الأبستمولوجيا في نبش حضارة الشرق التاريخية التي كانت مهمة منذ أمد بعيد. فهل المصالحة بين الإسلام والغرب ممكنة؟

هذه المسألة قديمة هي مدار الجدل، منذ اتصال المسلمين بالغرب الحديث الذي فاجأهم بتفوقه وغزوه لبلدانهم، بقدر ما أيقضهم من سباتهم الحضاري. وهي تتحدد، عند كل إشكال أو صدام يقع بين الطرفين. وقد باتت اليوم قضية الساعة، ولا سيما بعد الهجمات الإرهابية في باريس على صحيفة (شارلي إيبدو)، من قبل التنظيمات الجهادية الإسلامية.

والإسلام هو في ذلك، شأنه أي دين توحيدي أو معتقد أحادي، إنما يشتعل بعقلية التهمة والتفكير والإقصاء للآخر، غير المسلم، أو للمسلم المتخلف في المذهب والرأي، كما تشهد اليوم الصراعات الدموية بين الشيعة والسنة حول الرموز والنصوص. إذا كان المسلمون لا يقبلون بعضهم البعض فكيف يقبلون الآخر المتمثل في الغرب بدوله وثقافته!

إنّ مساوئ الإستشراق ليست في الإستشراق بذاته، بل هي ناجمة عن وضعية المستشرقين، وموقعهم خارج مدار الفهم الأنثروبولوجي لحياة وطريقة معيشتنا بالدرجة الأولى، وهي كامنة أيضاً، في مقدرة القوي وجرائه على فضح ما لا يتجرأ على كشفه من يعيش في كنف تبجيلاته التراثية المقدسة بالدرجة الثانية، وكي لا نبرّر ما لا يتبرّر في بعض وجوه الإستشراق الحديث، نقول إنّ افتراءاته وتشويهاته لواقع الشرق، لم تحصل كلها دفعة واحدة، وعن قصد متعمّد، بل جاء جزءها الأكبر لضرورات بنيوية، أي لإحتياجات هوية الغرب، الخارج لتّومن حروب وتقاتل داخلي كاد أن يطيح بأسباب تماسكه، لو لم يستدرك مفكّروه خطر التشرذم والتّفرقة في أمّتهم،

ولقد سقنا هذه الشهادة من واحد منهم لا لنستوضح مدلولاتها الواضحة كعين الشمس ولا لنستنطق معارضتنا لهم من أقوالهم ذاتها، إنما للوقوف على المستوى النقدي لثقافتهم التي أباحت تناول ما يحرم علينا تناوله في ثقافتنا المتعطّشة إلى أقلام من هذا النوع، لكي يعتمل النقد في معتقداتنا الساكنة منذ أمد بعيد.

وفي هذا السياق، كان الأولى "بسعيد" الذي بذل جهداً موفّقاً في نقده وتشريحه للاستشراق، أن يصرف جلّ اهتمامه إلى دراسة أسباب ضعف الواقع العربي الإسلامي وترهله المُستغل في معانيه أسبابه بنتائج واقع الحال، من قبل الإستشراق غير البريء بالمطلق، وغير المهتم بشكل قاطع، خصوصاً وإنه "ثمة كتب حديثة ملفّنة للنظر ترينا جيّداً هذه الوظائف المتتالية للاستشراق في تركيبة النظرة الأوروبية، هذا الإستشراق هو في البداية نظرة للذات قبل أن يكون معرفة حقيقة للآخر". (أحمد حسن إبراهيم، 2004، ص 558-559)

إذا كنا نبحث عن حلول، فلا بد أن نتعرف عن الأسباب، والبحث عن الأسباب يجب أن ينطلق من منطلق صادق وموضوعي، وليس من منطلق التراشق وتوسيع دائرة الاتهام، فبعض الذين لا يقبلون الحديث عن أسباب العنف السياسي لينجروا إليها كثيراً من الجماعات أو المناشط أو التيارات التي يختلفون معها. وبعض القوى المعارضة تمارس الشيء ذاته، فتعتبر أن الحكومات وحدها، أو بعض الأطراف الليبرالية هي المسؤولة ولأنّ الخطر داهم يستهدف الأمة بكل قنواتها وأفرادها ومؤسساتها ويضرب في الوجود الإنساني، وفي البنية التحتية وفي العمق الاقتصادي، ويستهدف الاستقرار والوجود فيجب أن تكون المعالجة شفافة ناضجة شجاعة، وإلا يستثني أحد نفسه، ولا يوظف الحدث لدائرته خاصة، فكلنا مسؤولون، وكلنا مستهدفون.

إن خطورة الموقف التاريخي التي تعيشه الأمة يقتضي قدرا من المصارحة والوضوح والمكاشفة التي لا تقوم على التلاؤم والسباق في التخلي عن المسؤولية ولكن على العمل المخلص لاكتشاف مواضع المرض ومعالجته. فمن الخطأ أن نرمي بظاهرة العنف والإرهاب عن خصومنا ونبرئ منها أنفسنا، فأزمة العنف مقيمة بيننا، غير طارئة على مجتمعنا ولا يليق بنا أن نتغاضى عن هذه الظاهرة، أو ننكر وجودها، وإنما علينا أن نحدد أسبابها ونبحث عن علاجها، ونقدم بين يدي ذلك جملة من الملاحظات.

أ-توفر حسن النية ضروري لكل تناول رشيد، إذ لا يقصد بالتناول الهجوم الإعلامي أو التشفي، بل المقصد الصحيح هو حماية الأفراد من الوقوع في الغلو، حفظا لدينهم ودنياهم وحفظا لمقصد الاجتماع وحفظه من التهلك، بما في ذلك حفظ حقوق الإنسان، وتمكين الأمة من الانطلاق نحو النهضة الحيوية في المجالات المختلفة.

ب-الحلول المتصلة بالأسباب؛ والحلول التي تطرح لا بد أن تأخذ في الاعتبار أن لكل بلد طبيعته، ولكل بيئة ظروفها فثمة اعتبارات خاصة لكل مجتمع، يصاحبها مشترك يصدق على سائر المجتمعات البشرية أو على الأقل الإسلامية، وفي دائرة أضيق العربية.

ج-في الواقع العربي غالبا ما تكون المعالجات بمعزل عن الأسباب وكأنها لا تؤمن بالسببية أو ترى أن المؤثرات خارجية محضة، وتبرز جانب المواجهة المادية والحرب الإعلامية متجاوزة بذلك أي حديث أو تفكير في البحث عن أسباب من شأنها أن تجعل الظاهرة أكثر إتساعا، أو أسرع تكررا، وإن تشكلت في صور شتى تتفاوت فيما بينها، ولكنها تتحدد في طبيعتها، نظرا لأن أسبابها واحدة.

إن التسلسل المنطقي يحتم، مع ضرورة المعالجة الآتية، أن تعتمد جهات علمية واجتماعية لدراسة الظاهرة بعمق وتلمس دوافعها والعوامل البيئية والتاريخية والسياسية والاقتصادية التي تقف وراءها. مع التأكيد المستمر على الفرق بين البحث عن الأسباب لدراستها وإزالة ما يمكن إزالته منها، وبين التسيو والتبرير. ومع هذا فعلى أن نمارس نقدا واضحا صريحا في داخل مجتمعنا الإسلامي. وقد لحضنا ونحن نتحدث عن أسباب العنف أننا أمام ظاهرة شديدة التعقيد والتداخل، وهذا ما يجعل الحديث عن معالجتها شديد التعقيد والتداخل كذلك، ومن أجل ذلك أثنا أن نتحدث عن دور عدد من الفاعلين في معالجة هذه الظاهرة كل من موقعه ومكانة والمسؤولية فردية وجماعية في ذات الوقت.

وهذا يعود إلى الأنظمة السياسية العربية التي تلجأ بكثافة العنف في مواجهتها للحركات الإسلامية، لأنها أنظمة متوفرة خائفة وفاقدة لشرعيتها، غير أنها مقتنعة بقدراتها العسكرية. فالقائمون على رأس السلطة "إذ يشعرون بأن هذه السلطة تفلت من بين أيديهم، يلقون على الدوام أكبر قدر من الصعوبة دون مقاومة إغراء استبدال السلطة بالعنف". وهذا يعني في النهاية أن الفساد الداخلي للأنظمة السياسية العربية، وتهاونها في الحقوق القومية لشعوبها، وعدم جديتها في التصدي للأطماع الاستعمارية، ويعد العامل الرئيسي في لجوء الحركات الإسلامية للعنف. فالعنف غالبا ما يظهر في البلاد عندما تعيش تلك البلاد حالة تفكك وفساد وتعرض لهجمات خارجية. (صالح رشيد الحاج، 2012، ص173)

لهذا... ليس غريبا أن تكشف المجتمعات أو الكيانات العربية بعد هذا التاريخ من الاستبداد السياسي والتفريغ الفكري والجمود الاجتماعي عن واقع مهيب يجعلها نهبا مستباحا لأطماع الآخرين، وسماوات مفتوحة لسنوات الغزو الفكري، التي تهب على غزو إنسان عربي خاوي الوفاض، ومجتمع عربي يعيش حياة اطراد عشوائي استهلاكي، وغزو عن الفعل والفكر وإعمال العقل وعن قبول المواجهة النشطة لتحديات العصر. وأن مثل هذه مجتمعات إذا شاءت تأخذ سبيلها إلى التحديث والمساهمة الحضارية مع مجتمعات العالم فلا بد لا أن تعي تاريخها وحاضرها بعقل علمي ناقد لتختار الأسلوب الأمثل للتغيير والبناء. وسوف يدفع هذا العمل على تجاوز المصالح الذاتية الضيقة، وتجاوز واقع التفتيت ومن ثم تشكيل تكتل حضاري إقليمي قومي، يرئى بنية، تشكيل تكتل حضاري إقليمي قومي، يرئى بنية المجتمع لخصائص جديدة. (جلال شوقي، 2007، ص240)

لذلك الإستشراق الحديث إلى بناء عصر جديد ومجتمع ديمقراطي بكل مقومات التحول الهيكلي والفاعلية الإنتاجية الإبداعية وبكل أركانه ودعامته من حرية فكر وتعبير، ومن ثمة إبداع وحق في التغيير، وهو الأساس الصحيح للمناعة الثقافية في مواجهة أي رياح معادية تستهدف الذات الجمعية، وهو الأساس للتفاعل الثقافي بين أكفاء أنداد. ومن ثم فإن الديمقراطية بالمعنى الذي أسلفناه، هي الأساس الراسخ لوجود اجتماعي مكين وإنسان عربي مبدع، واع حضاريا، صاحب عقل وفعل جديدين.

لهذا كله. فإن مناط الأمر على طريق التحول الحضاري سيكون في جميع الأحوال مجتمعا جديدا وإنسانا جديدا. مجتمعا ديمقراطيا على مستوى حضارة العصر مع الاحتفاظ بالخصوصية: رأي حر مشاركة حرة، حقوق وواجبات لها السيادة ومتساوية بين الجميع.. حكاما ومحكومين باعتبارهم مواطنين دون تمييز على أساس من عرق أو دين أو نوع أو قبيلة أو عائلة، وأن يجمل هذا كله عقل حر حكما ومرجعا وأن تكون أسسه ثقافة اجتماعية سائدة. (جلال شوقي، 2007، ص243)

وحرى أن يكون لا شيء يولد مكتملا وإنما يولد عبر زمان حمل ومخاض ولادة ومعاناة وولادة وصراع وتطور مطرد، وأن يأتي هذا كله ثمرة اختيار حر واستجابة لفعل حضاري نشط يولد حاجة طبيعية داخلية إلى المشاركة في السياق الحضاري. وهكذا ينمو الجنين ويشب الوليد بصمة الخصوصية، خصوصية التاريخ والواقع والعصر ويتميز بدynamية التطور الارتقائي. إن الحداثة والمجتمع الديمقراطي بنية واحدة متكاملة متطورة، أو هما وجهان لعملة واحدة لا وجود لأحدهما دون الآخر. (جلال شوقي، 2007، ص243)

وفي هذا الإطار من الأهمية بمكان التأكيد على النقاط التالية:

- إن التفاعل والحوار والمشاركة كقيم ومبادئ من الضروري أن تسود في العلاقة وتتحكم في مسار الإسلام والغرب، هو نظام في المجتمع قبل أن تكون قيمة في العلاقات السياسية والحضارية بين مختلف الدوائر الحضارية في العالم. فمطلب التفاعل والحوار مع الغرب، لا يتأتى بشكل فعلي، إلا إذا سادت القيم المذكورة واقع العرب والمسلمين وفي حقول حياتهم المختلفة .

- إن التفاعل والحوار والمشاركة الحضارية ممارسة نسبية قابلة للنمو في العلاقات الحضارية مثلما هي قابلة للتراجع، وصياغة الواقع العربي والإسلامي وفق هذه القيم، هو بمثابة توفير شروط هذه الممارسة على صعيد العلاقات مع الغرب
- لا مشاركة فعلية في الحضارة الإنسانية ولا حوار بناء مع الغرب، ولا تفاعل مثمر مع قوى الحضارة الحديثة إلا بوجود قوى متوازنة، وطريقنا لتحقيق القوة المتوازنة، هو إنهاض المجتمعات العربية والإسلامية في مختلف المجالات والحقول. إن المشاركة الحضارية تؤخذ ولا تعطي، والحوار إرادة حضارية قبل أن تكون رغبة وأمنية تختلج في نفوس الكثيرين، كما أن التفاعل الخلاق مع الحضارة الحديثة مرحلة يبلغها الواقع العربي والإسلامي، حينما تتكامل قواه وإمكاناته الذاتية.

كما أن إنهاء الكثير من الاختناقات التي يعانيها الواقع العربي والإسلامي وإشاعة مناخ جديد للتوجهات الحضارية، كل هذا يساهم بشكل فعال في تأكيد النظام الاجتماعي الجديد، القادر على تطوير صيغة الحوار والتفاعل مع الغرب. وحينما تغيب هذه العناوين عن واقع وممارسات النخب العربية والإسلامية فإن الواقع الاجتماعي برمته لا يكون مهياً لممارسة نمط تفاعلي وتواصلي مع الغرب، لفقر الواقع العربي والإسلامي، ولوجود مناخ عام من جراء هذا الفقر يدفع باتجاه الانهيار والتبعية والتقليد. فالتفاعل والحوار مع الغرب، ليس بالمسألة التي يمكن توصيفها بالبساطة واليسر، بل هي جملة من التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية التي تندرج في إطار النهضة الشاملة للواقع العربي والإسلامي وبدون ذلك تبقى هذه العناوين وكأنها وصفات جاهزة لا تقدم أي مشروع نوعي للأمة.

فالواقع العربي والإسلامي ينبغي أن يكون له حضور معرفي إنساني، وسياسي، ومؤسسي ووجه أخلاقي وقيمي، وقوى اجتماعية فاعلة في إطار النهوض الحضاري، حتى يتسنى لهذا الواقع التفاعل والحوار مع الغرب وقوى الحضارة الحديثة. فالتفاعل والحوار ليس شعارات، وإنما اتجاه تاريخي، وقوى اجتماعية تبنى الأرضية التكريس هذه القيم وإعطائها بعدة مؤسسية دائماً.(محفوظ محمد، 1998، ص221-222)

4. خاتمة:

ضع في. تناولت هذه الدراسة بالتحليل والتّقد دور الاستشراق الفرنسي، بوصفه نموذجاً للاستشراق السياسي، في تشكيل صورة نمطية عن العالم العربي الإسلامي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في إنتاج العنف السياسي وتبريره. وقد أظهرت النتائج أنّ هذا الخطاب رغم ادّعائه العلميّة والحياد، كان حاملاً لبعيد إيديولوجي واستعماري واضح، حيث سعى إلى تأطير الشرق في ثنائية دونيّة مقابل التفوق الغربي، مع تصوّره كمجال دائم للفوضى، العنف، والانحطاط الحضاري. من خلال تحليل

تمثّلات المدرسة الاستشراقية الفرنسيّة، بدأ جلياً أنّ العنف لم يكن يفهم في ضوء أسبابه السياسيّة والاجتماعية المعقّدة، بل غالباً ما ربط بثقافة الشّرق أو بدينه ممّا أعاد إنتاج خطاب يُقصي الآخر بدل أن يفهمه. إنّ الاستشراق، بوجهه الفرنسي خصوصاً، لم يكن مجرد مشروع معرفي، بل كان أداة هيمنة غذّت العنف السياسي عبر التأثير على السياسات الخارجية، وعلى آليّات تمثيل الآخر في الوعي الغربي. وقد انعكس هذا على مستوى العلاقات الدوليّة، حيث تبرزت التدخّلات العسكريّة، وفرضت الوصاية الثقافيّة وتعمّقت القطيعة الحضاريّة بين الشّرق والغرب.

وفي ضوء هذه المعطيات، تبرز الحاجة الملحّة إلى تجاوز الخطاب الاستشراقي التّقليدي، من خلال تفكيك بنيته المعرفية، وإعادة النّظر في أسه المفاهيمية، والاعتراف بأنّ إنتاج المعرفة لا ينفصل عن موازين القوّة. ما ينبغي استحضار السيّاقات التاريخيّة والسياسيّة في تحليل ظاهرة العنف، بعيداً عن التّفسيّرات الثقافيّة الجوهريّة التي تُفرّغ المجتمعات الشرقيّة في تعقيدها وواقعها. وتقتّرح هذه الدّراسة في ختامها، مشروعاً بديلاً يقوم على العدالة المعرفيّة، والانفتاح على أصوات الشعوب المهمّشة، وتبني حوار حضاري حقيقي يبتعد عن منطق المركزيّة الغربيّة. كما تدعو إلى معالجة شاملة للعنف السياسي، من خلال إصلاح داخلي يعزّز الحكم الرّشيد والمواطنة، والكرامة الإنسانية، إلى جانب مساءلة الإرث الاستشراقي الذي مزال يلقي بظلاله على التّصورات والممارسات إلى اليوم. فقط من خلال هذه المراجعة العميقة، يمكن التأسيس لعلاقة أكثر توازناً بين الشّرق والغرب، قائمة على الاعتراف المتبادل، والتكامل الحضاري بدل الصراع والإقصاء.

إن إعادة النظر النقدية في الاستشراق الفرنسي ضرورية لكشف خلفياته الإيديولوجية وتجاوز الصورة النمطية عن الشّرق، وهو ما يتطلب دعم إنتاج معرفة عربية مستقلة تعبر عن الخصوصيات المحلية. لا يكفي الانتقاد، بل يجب بناء هوية حضارية ذات مشروع معرفي وسياسي مستقل، يكون منطلقاً لحوار متوازن مع الغرب يتخلص من أساليب الهيمنة والتسلط. كما أن معالجة جذور العنف السياسي تتطلب إصلاحات داخلية وعدالة اجتماعية، بعيداً عن التدخّلات الخارجية التي تزيد الوضع تعقيداً. في النهاية، الحرية في التخلص من هيمنة الاستشراق لا تتحقّق إلا بتأسيس هوية حضارية واعية قادرة على بناء ذاته والتمسك بخصوصيته.

5. قائمة المراجع:

1. إبراهيم، أحمد حسن، (2004)، صدام المصالح وحوار الحضارات، سوريا، مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع.

2. أحمد، خليفة حسن أحمد محمد، (1997)، أثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، مصر، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
3. بوكاري، مصطفى الحاج مالك، (1992)، الاستشراق الفرنسي وموقفه من تاريخ عهد النبوة، قسم الدعوة، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية.
4. الجبري، عبد المتعال محمد، (1995)، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مصر، مكتبة وهبة.
5. جلال، شوقي، (2007)، العولمة الهوية المسار، مصر، الدار المصرية اللبنانية.
6. الحصين، سلطان عمر، (1436هـ)، الاستشراق الفرنسي والسيرة النبوية: دراسة نقدية لكتاب تاريخ العرب العام، السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية.
7. الزيدي، مخلف خضير إسماعيل، والعداري، ثائر عبد المجيد وآخرون، (2015)، موسوعة الاستشراق: معاودة نقد التمرکز الغربي، وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، الجزائر، ابن النديم للنشر والتوزيع.
8. سعيد، إدوارد، (2006)، تغطية الإسلام، ترجمة محمد عناني، مصر، دار رؤية للنشر والتوزيع.
9. سعيد، إدوارد، (2007)، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، مصر، دار رؤية للنشر.
10. شايب الدو، أمحمد، (2010)، الرسالة: الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر.
11. الشرفا، وليد، (2016)، إدوارد سعيد ونقد تناسخ الاستشراق: الخطاب، الآخر، الصورة / الفكر، فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر..
12. صالح، رشيد الحاج، (2012)، الوجه السياسي للثقافة العربية المعاصرة، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.
13. الفيومي، محمد إبراهيم، (1973)، الاستشراق: رسالة استعمار تطور الصراع الغربي مع الإسلام، مصر، دار الفكر العربي.
14. محمد، محفوظ، (1998)، الإسلام، الغرب وحوار المستقبل، لبنان، المركز الثقافي العربي..
15. المزوغي، محمد، (2016)، في نقد الاستشراق، المغرب، إفريقيا الشرق.
16. هرماس، عبد الرزاق بن إسماعيل، (1999)، مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 38.